الأمثال الشّعبية القبائلية بين التّرجمة الحرْفية والتّرجمة الثّقافية

د. رشيدة سعدوني، معهد الترجمة، جامعة الجزائر 2، الجزائر
د. فتيحة رمضاني، قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر 2، الجزائر

ملخّـــص

يتناول المقال موضوع إشكالية ترجمة الأمثال الشّعبية القبائلية إلى اللّغتين الفرنسية والعربية، ويسعى إلى إبراز المعيقات التي يصادفها المترجم حتى ينقل هذه الأمثال. كما يركز على صعوبة تقديم صورة دقيقة في نصّ التّرجمة تُماثل تلك التي وردت في المثل الأصلي لأنّ معرفة اللّهجة القبائلية معرفة لسانية وحدها لا تكفي إذا لم تُرفقْ بمعرفة ثقافية عميقة، ضف إلى أنّ اقتراض هذه اللّهجة ألفاظا ودلالات من اللّغتين المذكورتين قد أفضى إلى التّساؤل حول حقيقة هذه التّرجمة نفسها لأنّ الأمر يتعلّق بنقل كلمة أو مفهوم موجودين أصلا في اللّغتين المنقول إليهما. وإذا كانت التّرجمة ضرورية لإنقاذ الأمثال الشّعبية من الزّوال والنّسيان، فإنّه ينبغي على المترجم تقديم مكافئ ثقافي لها يتقبّله القارئ ويفهمه بسهولة.

الكلمات المفتاحية: الأمثال، الأدب الشّفهي، القبائلية، الترجمة، الثّقافة الشّعبية.

Résumé

Les proverbes populaires kabyles entre la traduction littérale et la traduction culturelle

Le présent article étudie la problématique de la traduction des proverbes populaires kabyles en français et en arabe, et vise à montrer les obstacles auxquels bute le traducteur lors de leur transfert. Pour ce, il se focalise sur la difficulté de rendre l'image du proverbe d'origine à cause de l'insuffisance de la connaissance linguistique du kabyle, sans une connaissance culturelle approfondie. Ajoutons à cela l'existence de concepts des deux langues susmentionnées, dans la structure du proverbe kabyle, ce qui rend le processus de traduction un simple re-transfert d'un concept existant déjà dans ces deux langues. Et si la traduction des proverbes est nécessaire pour les sau-

ver de l'oubli, le traducteur est tenu de présenter l'exotisme du proverbe original que le lecteur acceptera et comprendra sans peine.

Mots-clés: Proverbes, littérature orale, Kabyle, traduction, culture populaire.

مقدمـــــة:

إنّ الأمثال الشّعبية جزءٌ من الثّقافة الشّعبية السّائدة في كل مجتمع وهي «شكل من الأشكال الأدبية القديمة التي عرفتها الإنسانية» [1]، كما تندرج في الموروث الثّقافي الشّفهي الذي تتناقله الأجيال. فهي، إذن، أحد عناصر الثقافة اللاّمادية التي تشمل القيم والأفكار والمعتقدات والعادات والتّقاليد والأخلاق وغيرها.

وتحوي الأمثال الشّعبية معلومات اجتماعية وثقافية تتعلق بالمجتمع الذي قيلت فيه، كالثقافة السّائدة وطرق العيش. وتصف بدقة وبمصداقية الحياة اليومية للأفراد، وهي سهلة الحفظ والانتقال بينهم لأنها تستخدم عبارات لغوية في متناول كلّ طبقات المجتمع، واللّهجات العامية. وقد اهتم أدباء وباحثون كثيرون بجمع هذه الأمثال ودراستها بهدف حفظها من الزّوال، ولما تتضمّنه من المعلومات التي أشرنا إليها. وتتوفّر تعاريف كثيرة لها، وتدور كلّها حول نفس المعنى وهو التّشبيه.

فيعرّفها ابن منظور على أنّها « كلمة تسوية، يقال هذا مِثْلُهُ ومَثَلُهُ، كما يقال هذا شِبْهُهُ وشَبَهُهُ»[2]. والمعنى المقصود هنا هو التّشبيه والمماثلة. وتُعرّف الأمثال كذلك بأنّها «من أبرز عناصر الثّقافة الشّعبية لأنّها مرآة تعكس طبيعة الناس ومعتقداتهم لتغلغلها في معظم جوانب حياتهم اليومية. وهي لا تُبيّن المواقف المختلفة فقط بل تتجاوز ذلك أحيانا لتقدّم لهؤلاء النّاس نموذجا يقتدى به في مواقف عديدة» [3]. ومعنى هذا القول أنّ الأمثال الشّعبية تلخّص ما يحدث في المجتمع من أمور ومواقف يومية بطريقة يغلب عليها طابع المزح والسّخرية للفت الانتباه إلى مسألة معيّنة قصد المدح أو التّوبيخ أو الاتّعاظ أو غيرها من الأغراض.

ولا تختلف الأمثال الشّعبية القبائلية التي تنضوي تحت الأمثال الأمازيغية عن غيرها من الأمثال الموجودة في المجتمعات الأخرى، في شكلها ومضمونها وهدفها، وهذا ما يؤكده الحسين المجاهد الذي يقول: «لا يختلف المثل الأمازيغي عن المثل في الثقافات الأخرى محلية كانت أم عالمية ، سواء من حيث شكله وبنيته أو من حيث مدلولاته، وأبعاده ووظائفه ، فهو بمثابة صيغة مختزلة للحكاية، أو خلاصة لجوهر القصد فيها،

إذ أنّ في عباراته الموجزة تكمن تجربة معيشة أو قصة ذات مضمون ومغزى، وشخوص وحبكة، وأحداث تتبادر إلى ذهن المتلقي، وتحيله على مرجعية ثقافية تتجذّر مكوناتها في الذاكرة الجماعية التي ينتمي إليها المثل.» [4] ويقصد هذا الباحث أنّ الأمثال الشّعبية هي حوصلة تجارب الأفراد الذّين يردّدونها قولًا في مقامات مختلفة. وقادتنا أهمية الأمثال الشّعبية في المجتمع القبائلي وترسّخها فيه إلى تناولها في هذا المقال للوقوف على إشكالية ترجمتها. وسنسعى إلى الإجابة عن السّؤال الآتي: «إلى أيّ مدى ينجح المترجم في نقل الأمثال الشّعبية القبائلية إلى اللّغتين الفرنسية والعربية؟

نبذة عن الثقافة الشعبية القبائلية:

تذكر مؤلفات تاريخ المغرب العربي، عامة، وتاريخ الجزائر، خاصة، وجود غزوات خارجية عديدة، «حيث كان الغزو متسلسلا عبر التاريخ، فكان وجود الفينيقيين والرومان والوندال والبيزنطيين والعرب والأتراك وأخيرا الفرنسيين.» [5] (ترجمتنا). ونتجت عن هذه الغزوات عملية تبادل ثقافي تمثّلت في استعمال استعارات ثقافية بين المستعمرين والسّكان الأصليين، وأول ما تأثر بهذا التّبادل هو اللّغة لأنّ أغلبية مجتمعات المغرب العربي هي مجتمعات ذات ثقافة شفهية، ومن بينها سكان منطقة القبائل الذين « يمثلون عرقا أو مجموعة أعراق مختلفة عن العرب، وتعتبر اللّغة في هذه المنطقة الحجر الأساسي الذي يمثّل الهوية القبائلية.» [6] (ترجمتنا). ولا تخصّ هذه اللّغة قبائل الجزائر فقط وإنّما كل القبائل التي تعيش في المغرب الكبير.

ويرى Eugène Daumas (أوجين دوماس) أنّ «المجتمع القبائلي ينحدر من مجتمع واحد متجانس وكان هو المجتمع المسيطر في بلاد المغرب، والجزائر بصفة خاصة، ولكن بسبب الاستعمارات المتكررة التي اضطهدته، غادر سكانه السّهول، واستقروا في الجبال.» [7] (ترجمتنا). أما اللّهجة القبائلية، فقد ارتبط ظهورها «بظهور اللّهجات الأمازيغية الأخرى، وهذا ما يفسر اشتراكها [معها] في العديد من النّماذج اللغوية.» [8] (ترجمتنا) حسب Foudil Cheriguen (فوضيل شيريغان). وتمتاز هذه اللّهجة باستعمال النّاطقين بها مفاهيم لسانية مقترضة من اللّغة العربية، ومصدرها القرآن الكريم أولا، واللّهجات المحلية، ثانيا. وأدى التّعايش بين المجتمع القبائلي والمجتمعات الأخرى نتيجة الغزوات التي أشرنا إليها، إلى إثراء الثّقافة القبائلية من حيث الأغاني والأشعار والألغاز، بالإضافة إلى القصص والأمثال الشّعبية التي هي موضوع دراستنا.

إنّ الأمثال الشّعبية القبائلية هي «آلة فعّالة في لغة الكلام، وتلخّص فكرة معيّنة في أصغر عدد ممكن من الكلمات ذات معنى.» [9] (ترجمتنا). وتشير كلمة «لمتل (أو لمثل)- وهي اقتراض من اللّغة العربية- إلى معنى المثل في اللّهجة القبائلية، وتعني المقارنة، وجمعها

لمتول (أو لمثول)» [10] (ترجمتنا). كما تستعمل كلمة « أنزي» [11] للتّعبير عن المفهوم نفسه، وهي كلمة حديثة ونادرة الاستعمال عند الكلام. وتتطلّب هذه الأمثال شرطين أساسيين وهما «الإيجاز، واستعمال رموز لغوية ذات معاني. ويسمح هذان الشّرطان بفهمها. وبفضلها يسهل إيصال الرّسالة والأفكار التي يصعب قولها مباشرة.» [12] (ترجمتنا).

وتسعى الأمثال الشّعبية القبائلية إلى ضبط سلوك الأفراد، ويتضمّن محتواها «التّحذير من الوقوع في الخطأ، والنّهي عن فعل القبيح، وذمّ الخيانة، وتهدئة الناس عند الابتلاء وحثّهم على الصّبر، وكشف عيوبهم وإزالة الأقنعة عنهم...». [13]

وقد حظيت الثّقافة الشعبية القبائلية بالنّقل كتابة، إلّا أنّ الجدل يبقى قائما حول البُعدين الشّفهي والكتابي لها، كما تعتقد صليحة بن عباس، لأن كتابة الأمثال قصد حمايتها من الزّوال يؤدّي حتما إلى إفقادها أهمّ خصائصها الشّفهية. وتعرّف الباحثة نفسها المثل القبائلي بأنّه «جملة قصيرة ومختصرة وذات أسلوب مزين، وتعبّر عن حقيقة أو تجربة أو نصيحة، فأصبح عادة اجتماعية» [14] (ترجمتنا). ويستعمل الأفراد الأمثال الشّعبية وسيلة للقيام بعملية التربية، والتي تسمى في علم الاجتماع بعملية التّنشئة الاجتماعية التي تُكسِب هؤلاء الأفراد آداب السّلوك والمعاملة في حياتهم اليومية، وتمكّنهم من التّمييز بين الخير والشّر، وتوجّههم دائما إلى الطّريق الصّحيح.

وتمتاز الأمثال الشّعبية القبائلية، بالإضافة إلى ما ذكرناه، بالاختصار والوضوح. وهي معبّأة بحِكَم الأجيال السّابقة وتجاربها، وأسلوب مباشر وصريح، وتعير اهتماما خاصا للقوانين الاجتماعية والأعراف، وتحبّذ المقارنة بين المتناقضات الموجودة في المجتمع، كما تندّد بالسّلوك السّيء، وتشجّع السّلوك الحسن، وتستعمل أسلوب السّخرية لإضفاء روح المرح والمداعبة حتى لا تضرّ مشاعر النّاس.

وتتناول الأمثال الشعبية القبائلية عدة مواضيع متعلّقة بالدين الإسلامي الذي يستمد منه الأفراد إيمانهم، والأخلاق، والشّرف، والعائلة القبائلية العريقة. وتصوّر كذلك محيط البيئة القبائلية من حيوان ونبات. وعليه، فإنّ هذه الأمثال تنقل صورة دقيقة عن المجتمع القبائلي التقليدي، وتعرّف به وتمكّن من استحضاره عند استخدامها في مختلف المقامات.

إشكالية ترجمة الأمثال الشّعبية القبائلية:

تعود ترجمة الأمثال الشّعبية القبائلية إلى اللّغة الفرنسية إلى بداية القرن التّاسع عشر. وكان الآباء البيض من الأوائل الذين اهتموا بنقل ما يتداول منها في المجتمع القبائلي[15]. وإذا كان لهذه الأمثال حظ وافر في اللّغة الفرنسية إلّا أنّ العكس يقال فيما

يتعلّق باللّغة العربية لأنّه رغم تعايش الثّقافتين القبائلية، من جهة، والثّقافة العربية الإسلامية، من جهة أخرى، منذ وصول الإسلام إلى شمال إفريقيا، لم يتكفّل المترجمون بنقل الأمثال الشّعبية القبائلية إلى اللّغة العربية. وكلّ ما عثرنا عليه هو ترجمات قليلة قام بها باحثون أو مترجمون من سكان القبائل أمثال نسيب يوسف، وترجمات أخرى وردت ضمن مؤلفات تُعنى بالأمثال الجزائرية باللّغة العربية العامية التي لها مكافئات في الثّقافة الشّعبية القبائلية على غرار كتاب قادة بوطارن [16]. ويضاف إلى مشكل انعدام المراجع حول ترجمة هذه الأمثال إلى اللّغة العربية، مسألة أخرى وهي ضياع عدد كبير منها لكون الأدب الشّعبي القبائلي أدبا شفهيا بالأساس. فالذّاكرة الفردية والجماعية قد تُقصّر أو تعجز عن الاحتفاظ بكلّ الأمثال المتداولة.

وما يهمّنا في هذا المقام هو معالجة إشكالية ترجمة الأمثال الشّعبية القبائلية إلى اللّغتين الفرنسية والعربية لأنّ المترجم أمام نقل ثقافة شفهية لها خصوصياتها اللّغوية والنّحوية، إلى لغتين عرفتا الكتابة منذ عصور خلت. وقد أدى هذا الأمر إلى عدم إلمام عامة النّاس باللّهجة القبائلية، فيتعلّمونها كما يتعلّمون اللّغة الفرنسية واللّغة العربية. فكيف إذن بترجمتها ؟ وإذا فرضنا إمكانية أن يترجم من لم ينشأ وسط مجتمع قبائلي، أو لم يعش مدّة طويلة في البيئة القبائلية الأمثال الشّعبية القبائلية على غرار ما قام به الآباء البيض وبعض الباحثين في علم الاجتماع وعلم الأعراق الذين درسوا عن كثب خبايا هذه المنطقة، فهل يحتفظ نصّ التّرجمة بنكهته الأصلية التي تحوي عادات المجتمع القبائلي ومعتقداته وقيمه الاجتماعية وتصوّراته؟ إنّ التّأكيد على هذا الأمر أو الجزم به قد يكون إجحافا لمن يسعى جاهدا للتّعريف بالثّقافة الشّعبية القبائلية من خلال نقل أمثالها إلى لغات أخرى لأنّ ترجمة الأمثال الشّعبية تدخل في إطار التّرجمة الأدبية التي هي من الصّعوبة بمكان، بحيث يتعيّن على المترجم الذّهاب وراء دلالة الكلمات وأن يكون ذا اطّلاع واسع على أدب اللّغة المنقول منها، إذ يقول محمد عناني: [17]

لا ينحصر همّه [أي المترجم] في نقل دلالة الألفاظ أو ما أسمّيه هنا بالإحالة، أي إحالة القارئ أو السّامع إلى نفس الشيء الذي يقصده المؤلف أو صاحب النّص الأصلي، بل هو يتجاوز ذلك إلى المغزى وإلى التأثير الذي يفترض أنّ المؤلف يعتزم إحداثه في نفس القارئ أو السّامع. ولذلك فهو لا يتسلّح فقط بالمعرفة اللّغوية بل هو يتسلّح أيضا بمعرفة أدبية ونقدية، لا غنى فيها عن الإحاطة بالثّقافة والفكر، أي بجوانب إنسانية قد يُعفى المترجم العلمي من الإحاطة بها.

وقد يمكن تفسير الأمر على أنّ تقوقع الثّقافة القبائلية في رقعة جغرافية محدودة، وعدم إقبال الباحثين من العرب على الاطّلاع عليها عن طريق الاحتكاك بسكّانها

وتعلّم لغتهم، ساهم في العزوف عن ترجمة أمثالها إلى اللّغة العربية. ومهما يكن من سبب، تبقى معرفة ألفاظ اللهجة القبائلية غير كافية للقيام بهذه العملية لأنّ هذه الأمثال تحوي في ثناياها بُعدا ثقافيا وأدبيا ليس من السّهل نقله إذا لم تتوفّر الشروط الأساسية التي أشار إليها د. عناني. كما ترى سعدى زياد حسين أنّ «من أبلغ الصّعاب التي تواجه المترجم، ما يتعلّق بترجمة النّصوص الأدبية لما تحويه هذه النّصوص من بعض غموض ورمزية وإسقاطات ثقافية لا يدركها إلّا المتبحّر في دراسة آداب اللّغة، والعارف بثقافة أهلها.» [18]

وثمّة أمر يجب أن نشير إليه وهو اقتراض اللّهجة القبائلية مفردات ومفاهيم كثيرة من اللّغتين الفرنسية والعربية بحكم الخلفية التّاريخية، ممّا يطرح سؤالا حول ماهية هذه الأمثال التي –إن انطلقنا من هذه الفكرة- قد تبدو في نصّ التّرجمة وكأنّها نقل مفردات ومفاهيم موجودة أصلا في هاتين اللّغتين. ولا ينبغي إغفال أمر مهم وهو مدى استجابة القارئ لنصّ التّرجمة مهما كانت البيئة التي يعيش فيها والثّقافة التي ينتمي إليها. ونعني بالاستجابة، في هذا المقام، أن يجد القارئ مكافئات الصّور البلاغية التي تزخر بها الأمثال الشّعبية القبائلية، وهو أمر غير بديهي إذ يقول Michael CRONIN (مايكل كرونين)، في هذا السّياق، ما معناه «إنّ اللّغة البلاغية التي يبتدعها مجتمع ما لا تتناسب بالضّرورة مع اللّغات المختلفة التي توجد في مجتمعات أخرى.» (ترجمتنا) [19]. وتوجد ميزة أخرى لا تقلّ أهمّية عمّا ذكرناه، وهي طبيعة المجتمع القبائلي القائم على أنظمة القبلية والأبوة والنّيف، التي تظهر جليّا في الأمثال الشّعبية. فكيف يمكن ترجمة هذه المواضيع دون ضياع جوهرها إذا علمنا مسبقا أنّ لكلّ لغة أنظمتها الخاصة بها التي يصعب نقلها إلى اللّغات الأخرى؟ وإذا كان المثل القبائلي يرد بإيقاع ووزن خاصين به، فتطرح ترجمته مشكلة أخرى ذات حدّين وهي الحفاظ على الشّكل والتّصرف في المعنى، أو التّصرف في الشّكل والإبقاء على المعنى لأنّ إيقاعات الأمثال وأوزانها تختلف من لغة إلى أخرى. وهذا ما يعتقده عناني حين يقول: «ومثلما يجد من الصّعب عليه [أي على المترجم] أن يأتي بكلمة تترادف ترادفا كاملا مع الكلمة الأصلية، سيتعذّر عليه إيجاد الإيقاع الذي يعادل تماما الإيقاع الأصلي. فلكلّ لغة إيقاعاتها، ولكلّ إيقاع أصوله وتنويعاته.» [20]

وتجدر الإشارة إلى أمر آخر وهو وجود نسخ مختلفة للمثل نفسه لأنّ اللّهجة القبائلية تختلف في مفرداتها من منطقة إلى أخرى، ولأنّ المثل يتناقله النّاس شفهيا، فإنّ ترديده يتغيّر باستمرار على مستوى التّركيب والنّحو والصّرف. فكيف ينتبه المترجم إلى هذه الفوارق ؟ ولمّا كان المثل محمّلا بالسّلطة الجماعية التي تطغى دائما على السّلطة الفردية في المجتمع القبائلي، وجب التساؤل حول مدى قدرة المترجم على نقل صورة هذه السّلطة وأهميّتها لقارئ نصّ التّرجمة مع الاحتفاظ بالرّوح الجماعية كي يشعر بها.

وسعيًا إلى إبراز صعوبة ترجمة الأمثال الشّعبية القبائلية نظرًا للبعد الشّفهي للّهجة القبائلية نفسها، وللبعد الاجتماعي الذي يميّزها عن غيرها من اللّهجات الجزائرية واللّغات الأخرى، وعملًا بالدّعوة إلى تجنّب الحرفية في ترجمة هذا النّوع من النّصوص الأدبية لأنّها تدمّر النّص الأصلي[21]، ارتأينا عرض بعض الأمثلة التي تبيّن ما نذهب إليه. وتتعلّق هذه الأمثلة بأمثال قيلت في المرأة والأخوة والوفاء بالوعد والصّفات الحميدة والمذمومة والصّداقة.

أ. من حيث البُعد الثّقافي:

ترتبط الأمثال الشّعبية عامة بالبعد الثّقافي ارتباطا وثيقا لأنّ البنية العميقة التي تحويها ما هي إلّا انعكاس لثقافة لغة المجتمع التي قيلت فيه.

النموذج الأول:

Asawen ghef wudem n uhbib d akessar، ومعناه الحرفي «الطريق الصاعدة في وجه الحبيب طريق نازلة.» ويضرب هذا المثل في الصّديق الحقيق الذي يجده المرء وقت الحاجة، والذي يسعى إلى تهوين كلّ المُعيقات مهما بلغت درجة صعوبتها . وأدرجنا هذا المثل لاحتوائه الاسم udem المقرون بالزائدة w، والذي تقابله في اللّغة العربية كلمة «وجه». فإن جهل المترجم أنّ هذا الاسم لا ينبغي ترجمته حرفيا بسبب السّياق، فإنّه قد يفعل ذلك، ويترجم المثل ترجمة خاطئة. وكذلك الأمر بالنّسبة إلى ما معناه «الطّريق الصّاعدة» و «الطّريق النّازلة» وهو طباق ينبغي ترجمته أو تكييفه بما معناه الصّعب والهيّن. ونقدّر ترجمة هذا المثل إلى اللّغة العربية كالآتي: «الصّديق وقت الضّيق»، وإلى اللغة الفرنسية كالآتي: «C'est dans le besoin qu'on reconnaît ses amis».

النموذج الثاني:

Bu yiles medden akk ines، ومعناه الحرفي «صاحب اللّسان، كلّ النّاس مِلكهُ». ويضرب هذا المثل في الشّخص الّذي يعرف كيف يعبّر عن آرائه علنا، ويستعمل لغة خاصة ليجامل المستمعين له، سعيا منه إلى اكتسابهم. وما يهمّنا هنا كلمة iles المقرونة بحرف الجر y والتي تعني «اللّسان»، إذ ينبغي في التّرجمة عدم النّظر إلى هذه الكلمة بمعناها الحرفي (أي عضلة في فم الإنسان تمكّنه من الكلام) وإنّما بمعناها المجازي وهو التّمكن من جذب الآخرين باستعمال اللّغة المناسبة في المقام المناسب. وتجدر الإشارة إلى السّجع الذي ورد في هذا المثل «yiles» و «ines»، والذي لا ينبغي إغفاله حين التّرجمة. وإن عجز المترجم عن إيجاد مكافئ له، عليه البحث عن طريقة لإنتاج مثل مكافئ يتميّز بالإيجاز والوضوح. وقدّرنا ترجمة هذا المثل إلى اللغة العربية كالآتي: «إنّ من البيان لسِحرًا.»، وإلى

اللغة الفرنسية كالآتي: « On lie les bœufs par les cornes et les hommes par les paroles».

النموذج الثالث:

Ffegh berra, timghured، ومعناه الحرفي «اذهب خارجًا تَكبُرْ.» ويضرب هذا المثل في اكتساب الشّهرة والأهمية عندما يرحل الإنسان بعيدا عن قومه. فعادة ما يمنعه المقرّبون منه من ارتقاء سلّم النّجاح بسبب الكره والحسد، بينما يشهد هذا النّجاح عند الغرباء. وورد الفعل المصرّف « timghured» كناية عن الكِبر في عيون الآخرين، ولا ينبغي ترجمته حرفيا بالفعل الذي أوردناه (تكبُرْ)، ولكن بتقديم مكافئ يشير إلى اكتساب الأهمية عند الآخرين لا عند المقرّبين. فقدّرنا ترجمة هذا المثل إلى اللّغة العربية كالآتي: «النّسر غير صائد في عشّه.»، وإلى اللّغة الفرنسية بـ«Nul n'est prophète dans son pays».

النموذج الرابع:

Ur hemmlegh ara gma, ur hemmlegh ara win ara t-yewwten، ومعناه الحرفي: «لا أحب أخي ولا أحب من يضربه.» ويُضرب هذا المثل في محبّة الأخ لأخيه بحيث حتى وإن لم يكن المرء على وفاق مع أخيه، فإنّ علاقة الدّم والتّضامن بينهما قوية جدا ضدّ الغير لأنّ مفاهيم العائلة والأخوة والقرابة في البيئة القبائلية قائمة على مبدأ الدّفاع عن الأخ وحمايته ضدّ الجيران أو الأصدقاء أو سكان القرية أو الغرباء ممّن يريدون به سوءا مهما بلغت درجته. وينبغي على المترجم البحث عن مكافئ هذا المثل في اللّغة المنقول إليها، يُناسب هذه المفاهيم في ثقافة قارئ نصّ الترجمة. وارتأينا ترجمة هذا المثل إلى اللغة العربية بالبيت الشّعري الآتي:

أخاك أخاك إنّ من لا أخ له ❖ كساع إلى الهيجاء بغير سلاح

وإلى اللّغة الفرنسية كما يأتي: « Le doigt, on ne peut le mettre sur le tronc à couper. Le frère on ne peut le sacrifier ». ووجدنا في أحد المواقع الالكترونية مثلا سوريا يفيد الفكرة نفسها وهو «أنا وابن عمي على الغريب، وأنا وأخي على ابن عمي.» ويوجد مثل بالعربية الدّارجة الجزائرية الذي يعبّر عن العلاقة القوية بين المرء وأخيه، وهو المثال الآتي: «خوك خوك لا يغرّك صاحبك.»

ب. من حيث البعد اللّغوي:

إذا كانت الأمثال الشّعبية، بصفة عامة، تعكس ثقافة المجتمع الذي قيلت فيه، فإنّ الكلمات التي تشكّلها لها من الأهمّية ما يجعل المترجم يضعها تحت المجهر لأنّه يتعيّن عليه تحليل العناصر اللّغوية في الأمثال أوّلا، ثم إيجاد مكافئ ثقافي لها مجتمعة.

النموذج الخامس:

Argaz d awal macci d aserwal، ومعناه الحرفي: «الرّجل كلمةٌ لا سروالٌ.» يُضرب هذا المثل في الرّجل الحقّ الذي تظهر قيمته وشخصيته الحقيقية في وفاءه للعهد الذي يقطعه، ولا تكونان في هيئته الخارجية. وكلمة «aserwal» هي اقتراض من اللّغة العربية (سروال)، ووردت بمعناها المجازي الذي يُملي على المترجم البحث عن مرادف أقرب إلى المعنى المجازي الذي يعبّر عنه المثل، ولا ينبغي أن يكتفي بنقله نقلا صوتيا إلى مصدره، حسب ما ينصح به Glucksberg (غلاكسبورغ) [22] الذي يوصي بالبحث عن بديل للكلمة التي لا يعبّر معناها الحرفي عن المعنى المنشود. وقدّرنا ترجمة هذا المثل إلى اللغة العربية كالآتي: «وعد الحرّ دين عليه.»، وإلى اللغة الفرنسية كالآتي: «Chose promise, chose due». ولم ترتكز الترجمة إلى اللغتين المشار إليهما على شكل المثل ولكن على المعنى الذي يعبّر عنه، والإيجاز الذي يتّسم به، مع استعمال رموز من زاوية مختلفة. وقد ركّز المثل الفرنسي على الوعد وليس الإنسان الذي يقدّم الوعد، بينما شبّه المثل باللّغة العربية الوعد بدين يجب دفعه.

النموذج السادس:

Am win ixeddmen ghef xalti-s: nettat teqqar-as ad s-icuh, netta ad s-yeqqar ad t-teghnu، ومعناه الحرفي «كالمرء الذي يعمل لدى خالته. هي تقول في نفسها: «لن يطلب مبلغا كثيرا»، وهو يقول في نفسه: «أكيد ستجعلني ثريّا.»» ويضرب هذا المثل في المصالح الشّخصية التي يسعى كلّ طرف إلى إبدائها بغضّ النّظر عمّا يستحقّه الطّرف الآخر أو يقدر عليه. ووردت أربع كلمات في النّص الأصلي، تنتمي إلى اللّغة العربية، وهي الفعل المصرّف « ixeddmen» (أي يعمل) والاسم « xalti» (أي خالتي) والفعـــل المصرّف «icuh» (أي شحّ) والفعل المصرّف « teghnu» (أي أغنى). وهذا الأمر لا يخدم النّص الأصلي لأنّ القارئ سيتساءل حتما حول مصير الكلمات الأصلية في اللّهجة القبائلية للتّعبير عن هذه المعاني. وتقودنا أبسط التّفسيرات إلى القول بأنّ اللّهجة القبائلية اقترضت من اللّغة العربية كلمات كثيرة، وهذا الأمر ليس عيبا بالطّبع لأنّ كلّ لغة وُجِدت في البيئة الأصلية تستقي من اللّغة التي تدخل عليها. وقدّرنا ترجمة هذا المثل إلى اللّغة العربية كالآتي: «الحرّ عبد إذا طمع والعبد حرّ إذا قنع» (باستعمال الطّباق بين «الحرّ» و «العبد» وبين «طمع» و «قنع»، واستعمال المقابلة بين الجملتين اللّتان تفصلهما واو العطف)، وإلى اللّغة الفرنسية كالآتي: Grandes fortunes, grandes servitudes ، أي المرء إذا طمع في ثروة كبيرة يصبح عبدا للمادة.

النموذج السابع:

Tameṭṭut iḥerrzen, tif tayuga ikerrzen، ومعناه الحر في «المرأة المحافظة خير من زوج ثيران يحرث.» ويضرب هذا المثل في المرأة التي تعرف تدبّر أمور المنزل من أشغال واقتصاد في الإنفاق وكلّ ما يتعلّق بإدارة الشّؤون المنزلية. وورد في هذا المثل السّجع في كلمتي iḥerrzen وikerrzen. وينبغي عند الترجمة أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار بحيث تحبَّذ مجاراة المثل الأصلي وإيجاد مكافئ تُطرب له أذن القارئ. ونشير إلى أنّنا ارتأينا ترجمة هذا المثل إلى اللّغة العربية، فتصفّحنا مجموعة من المراجع حول الأمثال الشّعبية التي قيلت في المرأة للاستلهام منها. وكم كانت دهشتنا كبيرة عندما وجدنا في هذه المراجع أنّ كلّ الأمثال حول المرأة إنّما هي سلبية، وتضعها غالبا في صورة الكائن النّاقص عقلا، والذي يخضع لسلطة الرّجل، والذي تغزوه صفات الخيانة والنّفاق والكره والانتقام. ولا يخصّ هذا الأمر اللّغة العربية فقط بل لغات أخرى عبر العالم. غير أنّنا حاولنا إيجاد مكافئ للمثل القبائلي الذي أوردناه، وهو «وراء كلّ منزل عظيم امرأة عظيمة»، وإلى اللّغة الفرنسية كما يأتي: «Femme économe est un trésor, femme alerte vaut son pesant d'or».

من هو مترجم الأمثال الشّعبية القبائلية؟

ارتأينا عنونة هذا الجزء بـ»من هو مترجم الأمثال الشّعبية القبائلية؟» للنّظر في الشّخص الذي له من المؤهلات ما يسمح له بنقل الثّقافة القبائلية إلى ثقافة أخرى. فكيف يتعيّن على المترجم إذن محاكاة المثل الأصلي في ظلّ تقييد حرّيته؟ وبما أنّ الأمثال تنتمي إلى الأدب الشّعبي الذي يولي أهمية كبيرة للشّكل، تعتقد Ioana Irina DURDU-REANU)إيوانا إيرينا دوردوريانو(أنّ «المترجم لا يتبنى أشكال اللغة المنقول منها بل يستلهم منها ليكتشف أشكالا مماثلة في اللغة المنقول إليها، والتي لها التّأثير نفسه على قارئ نصّ التّرجمة.» [23] (ترجمتنا). ويبدو أنّ الاستلهام من لغة ما قد لا يكون أمرا بديهيا دائما لأنّ، أوّلا، بعض اللّغات متباعدة اجتماعيا وثقافيا، وثانيا، يتعامل المترجم أحيانا مع اللّهجات، ممّا يصعّب مَهمّته فيما يتعلّق باكتشاف أشكال تماثل تلك الموجودة في النّص الأصلي بسبب القواعد النّحوية البسيطة لهذه اللّهجات كما هو الحال بالنّسبة للّهجة القبائلية التي هي شفهية في الأساس، مقارنة بالقواعد النّحوية المكتملة في اللّغات الأخرى كالفرنسية والعربية. وفيما يأتي أمثلة تؤكّد ضرورة ارتقاء مترجم الأمثال الشّعبية القبائلية إلى ما وراء الجانب اللّغوي لنقل جوهرها نقلا صحيحا.

إنّ تشابه بعض الكلمات في اللّهجة القبائلية كتابة واختلافها نُطقا ومعنى قد يكون العائق الأكبر لمن يقول بمعرفة اللّهجة القبائلية معرفة لغوية. ومثال هذا القول المثلين الشّعبيين الآتيين: «Win yeḍsan ass-a, ad yettru azekka» و «Win yesʔan

ttrika ur tt-yettawi s aẓekka» ومعناهما الحرفي على التّوالي: «من يضحك اليوم سيبكي غدا» و «من له أملاك (في الدّنيا) لا يأخذها إلى القبر.» فإذا أخذنا كلمتي « azekka» في المثل الأول، والتي تعني (غد أي اليوم الذي يلي اليوم الذي نحن فيه)، و» aẓekka» بتفخيم حرف الزّاي، في المثل الثاني، والتي تعني (القبر)، ينبغي على المترجم أن لا يخلّط بين المعنيين وأن يُلِمّ بهذا الاختلاف اللّساني وإلّا قدّم ترجمة خاطئة. ويذكّرنا هذا الأمر ببيتي الشعر الآتيين لإسماعيل صبري باشا:

طرقت البـــاب حتّى كلّ متني ❖ فلمّا كلّ متـــــــني كلّمتني
فقالت لي أيا إسماعيل صبرا ❖ فقلت أيا أسما عيل صبري

فينبغي على المترجم هنا الإلمام بألغاز الكلمات المستعملة من جناس وسجع وجناس ناقص حتى يتمكّن من التّرجمة بطريقة صحيحة. وبما أنّ المثل يتعلّق، أساسا، بالتّشبيه والاختصار –كما أشرنا آنفا- ، على المترجم أن يعي هذا الأمر، ويقدّم للمثل الأصلي مكافئا يتضمّن هاتين الميزتين. ضف إلى أنّه مدعوٌ إلى استنباط المعنى الظّاهري والمعنى الباطني للمثل. فالمثل الشّعبي القبائلي الآتي «Ma tbedded, medden akk inek, ma teɣliḍ, ḥedd ur k-yessin» (ومعناه الحرفي «إذا وقفت كلّ النّاس لك، وإذا سقطت لن يعرفك أحدٌ.») إنّما يقال في الشّخص ذو المنزلة الرّفيعة الذي يتهافت عليه النّاس عندما يكون في أفضل وضعية، ويديرون له ظهره ما إن تتغيّر أحواله وينزل إلى الحضيض. وهذا هو المعنى الباطني. أما المعنى الظّاهري في المثل نفسه هو أنّ المرء عندما يكون واقفا على رجليه يقصده كلّ النّاس، وعندما يعجز عن ذلك كأن يمرض مثلا، يعزفون عن زيارته، ولا يأبهون لحالته. وأهمّ شيء ينبغي على المترجم أن يتعمّق في معرفته هو الثّقافة التي ينضوي تحتها المثل الشّعبي القبائلي، بحيث تقول سعدى زياد حسين: [24] « A good translator needs to be not only bilingual but also bi cultural, because culture affect vocabulary and structure» أي «المترجم الجيّد ينبغي أن لا يكون فقط مزدوج اللّغة بل أيضا مزدوج الثّقافة لأنّ هذه الأخيرة تؤثّر على المفردات والتّركيب.» (ترجمتنا). فكيف لمترجم ما أن ينقل المثل الآتي: «Iruh gher Sedduq ad yezzenz taxsayt» (ومعناه الحرفي : توجّه إلى صدّوق لبيع اليقطين)؟ فعليه أن يعلم مسبقا أنّ منطقة صدّوق التي تقع في ولاية بجاية معروفة في كلّ منطقة القبائل بإنتاج اليقطين، وبالتّالي من يسعى وراء بيعه في هذه المنطقة لن يجني الكثير –إن لم نقل لن يجني شيئا- لأنّ النّبات متوفّر فيها، ولن يتهافت النّاس على شراء سلعته.

ويتوخّى مترجم الأمثال الشّعبية القبائلية، على غرار مترجمي الأدب، الحذر لأنّ المادة التي ينقلها في صورتها الدّقيقة الأصلية، ينبغي أن تكون نفسها في اللّغة المنقول إليها. وقد أعجبنا التشبيه الذي استعمله محمد أحمد لوح [25] ليصف حالة المترجم عامة،

ووجدنا فيه تشابها بحالة مترجم الأمثال الشّعبية القبائلية، فارتأينا أن ندرجه فيما يأتي: «حاله كحامل البيض في زحام شديد بين أزقّة ضيّقة تعجّ بالمارة والمشاكسين، كلّ يحاول جُهده أن ينال نصيبا ممّا يحمل ذلك المسكين. أمّا هو فعليه المعوّل في أن يوصِل البيض إلى نهاية المطاف دون خسارة.» بالفعل، فإنّ المترجم له من المسؤولية ما يجعله يبحث عن أقرب مكافئ طبيعي للمثل، ويكون بالدّقة نفسها، وبالوضوح نفسه، وبالصّورة نفسها أو ما يقابلها في اللّغة المنقول إليها حتى يجد القارئ سهولة في فهم صورة نصّ التّرجمة كما لو أنّها أصلية. وعلى سبيل المثال، فإنّ المثل الآتي: D lqella n yergazan i k yerran a 3li d-argaz (ومعناه الحرفي «إنّ قلّة الرّجال هي من جعلتك يا علي رجلا») لن تنفع ترجمته حرفيا وإنّما ينبغي البحث عن مكافئ يفيد فكرة أنّ انعدام بعض الأمور هي التي تسمح لأمور أخرى بالظّهور والازدهار. ويمكن ترجمته بالمثل الفرنسي الذي يقول:Aux pays des aveugles, le borgne est roi أي «الأعور في بلاد العميان ملكٌ.» وتجدر الإشارة إلى وجود مثل قبائلي يتضمّن الفكرة نفسها الواردة في المثل الفرنسي، وهو « Azawal Di tmurt iderɣalen qaren-as bu laɛyun. ويفيد هذا المثل الشّعبي فكرة أنّ ندرة بعض الأشياء هي التي تُبرز وجود أشياء أخرى.

ولمّا كان المثل الشّعبي يحوي كنايات واستعارات وتشبيهات، يسعى المترجم إلى تصوير المشاعر والأحاسيس التي تحويها تصويرا دقيقا وإلّا لن تحظ بفهم قارئ نصّ التّرجمة، إذ يقول عناني: [26] «إنّ المشاعر والأحاسيس لا تنتقل إلّا عن طريق الصّور، وعدم الدّقة في التّصوير يُمكن أن يُخرج مشاعر مختلفة، ولا أقول مناقضة، للمشاعر الأصلية.» ولتوضيح هذا الأمر، ندرج المثل الشّعبي الآتي: Amek i s-tenna tyazit : a win ur njerreb tasa, ad yens anda nensa ! (ومعناه الحرفي «كما قالت الدّجاجة: من لم يجرّب الأمومة سيُمضي اللّيلة حيث نُمضيها»). إن استعمال صورة الدّجاجة للحديث عن مشاعر الأمومة في المثل الأصلي يصعب تكراره في اللّغة المنقول إليها لأنّ الثّقافات تختلف في تصوير هذه المشاعر، ويصادف أنّها تستعمل رموزا أخرى. وتُقوم البيئة القبائلية على «معايشة الحيوان، والاعتماد على بعض أنواعه في كثير من شؤون الحياة، وهذا يقتضي شـــــــدة العناية بأمره، ودقّة ملاحظته، ومعرفة الكثير من صفاته وطباعه» [27]، والدّجاجة مثال عن تلك الحيوانات التي تعيش في هذه البيئة. فكيف يتمكّن المترجم من تصوير صورة الأمومة في اللّغتين العربية والفرنسية؟ إنّ هذا الأمر ليس مستحيلا ولكنّه يتطلّب مكافئا للمثل الأصلي يصوّر المشاعر نفسها ولكن باستعمال رموز يتقبّلها قارئ نصّ التّرجمة لأنّ كلّ القراء لا ينتمون إلى بيئة ريفية، فيجدون صعوبة في فهم صورة المثل الأصلي إن لم تتم ترجمتها بصورة تناسب البيئة التي ينتمي إليها هذا القارئ. وعليه، فإنّ ترجمة الأمثال الشّعبية التي تعتمد أساسا على المجاز لا تتم بين الألسن فقط وإنّما بين

أنظمة تصوّر مختلفة لأنّ كلّ نظام لساني في العالم له تصوّر مختلف عن نظام لساني آخر. (28)

خاتمـــــــة:

تُعدّ الأمثال الشّعبية مرآة المجتمع القبائلي، وتتناول كلّ مظاهر الحياة التي يتميّز بها. وهي قديمة توارثتها الأجيال على مرّ العصور، وبفضل إيجازها وسهولة حفظها، يستعملها النّاس للتّعبير عن شتّى الأمور. غير أنّ ترجمة هذه الأمثال إلى لغات أخرى ليست بالأمر الهيّن إذ يشترط في المترجم الإلمام بمعرفة ثقافية عميقة إلى جانب المعرفة اللّسانية التي يكتسبها. ويتعلّق الأمر عموما بنقل تصوّر المجتمع القبائلي للمفاهيم والأفكار الرّاسخة فيه، والبحث عن مكافئ يناسب قـــــــدر الإمكان المثل القبائلي في اللّغة المنقول إليها، شكلا ومعـــــــــــــى.

وإنّ انتماء الأمثال الشّعبية القبائلية إلى الأدب الشفهي هو ما يطرح إشكالية ترجمتها لأنّ لكلّ ثقافة نظامها اللّغوي وبعدها الثّقافي الخاص بها، والذي لا يتلاءم بالضّرورة مع ثقافة أخرى. وإنّ غنى الأمثال الشّعبية القبائلية بالصّور البيانية والمحسّنات البديعية يوجب على المترجم تكييفها في اللّغة المنقول إليها لتصبح بنفس وضوح المثل الأصلي وإيجازه. ولمّا كانت المجتمعات تحوي أنظمة لسانية مختلفة، يسعى المترجم إلى نقل الأمثال الشّعبية القبائلية بما يناسب نظام اللّغة المنقول إليها.

الهوامـــــــش:

1. Voir l'ouvrage de Mohand Akli HADDADOU, intitulé Introduction à la littérature berbère, suivi d'une introduction à la littérature kabyle, Haut-Commissariat à l'Amazighité, Alger, 2009.

2. راجع كتاب ابن منظور بعنوان لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، الجزء 6، ب ت.

3 . http//sahr-lyaly.y007.com. Consulté le 10/08/2015.

4. الحسين المجاهد ، لمحـــــــــــــة عن الأدب الأمازيغي بالمغرب ، مجلة آفاق ، مطبعة المعارف الجديدة،الرباط ، المغرب ، ع1 ، 1992 ، ص: 125.

5 . Gabriel CAMPS, Les Berbères : mémoire et identité, éditions Barzakh, Alger, 2011.Gabriel Camps, p151, 2011

6. Eugène Daumas, Mœurs et coutumes de l'Algérie, ANEP, Alger, 2006, p. 111.

7. Idem.

8. Foudil Cheriguen, « Conditions dialectologiques et anthropologiques de la toponymie et de la microtoponymie du domaine kabyle », in Nomination

et dénomination: Des noms de lieux de tribus et de personnes en Algérie, CRASC. 2005. Oran, Algérie.
9. Abdennour ABDESSLAM, Recueil de proverbes Berbères, éditions ENAG, Alger, 1998, p. 37
10. HADDADOU, Ibid, p. 43
11. HADDADOU, Ibid, p. 45
12. HADDADOU, Ibid, p. 43
13. uqu.edu.sa/page/ar/97441. Consulté le 02.09.2015
14. Saliha BENABBAS, Etude comparative d'un langage féminin : Les proverbes Français et Kabyles relatifs à la présentation de l'homme, Thèse de doctorat, département de français, Faculté des Lettres et des Langues, Université Mouloud Mammeri, Tizi-Ouzou. SD, p. 4
15. Voir l'ouvrage de HADDADOU, précédemment cité.
16. Voir l'ouvrage de Kadda BOUTARENE, Proverbes et dictons populaires algériens, Office des Publications Universitaires, Alger, 1986.
17. محمد عناني، الترجمة الأدبية بين النّظرية والتّطبيق، الطّبعة الثّانية، الشّركة المصرية العالمية للنّشر، لونجمان، 2003م، ص: 6.
18. زياد حسين، سعدى، «بحث عن مشكلة الترجمة»، د.ت. مقال مقتبس من الموقع الالكتروني https://plus.google.com/117187740873234610439/posts/D3GmPtyWnxc
19. Michael CRONIN, Translation & Identity, Routledge, Oxon, 2006, pp. 104-105.
20. محمد عناني، المرجع نفسه، ص: 96.
21. مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعيـــــــة، العدد الخامس عشر، السنة السادسة، 2014م، ص: 3.
22. المرجع السابق، ص: 7.
23. Ioana Irina DURDUREANU, Traduction et typologie des textes, pour une définition de la traduction « correcte », Intercambio, dir. José Domingues de Almeida, série II, n° 3 (volume intégral), 2010, p. 12.
24. سعدى زياد حسين، المرجع نفسه، ص: 15.
25. محمد أحمد لوح، مسؤوليات المترجم الشّرعية والأخلاقية تجاه النّص المترجم من السّنة والسّيرة، مقال مقتبس من الموقع الالكتروني http://islamhouse.com/ar/books/461009/. تاريخ الدخول 18 أوت سنة 2015 م.
26. محمد عناني، المرجع نفسه، ص.ص: 176-175.
27. عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، الطبعة الأولى، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنّشر، دمشق، سنة 1988 م، ص: 401.
28. مجلة لارك، سنة 2014م، ص: 10.